

هكذا يُصنع المفكرون في الغرب

يوفال نوح هراري نموذج جديد من المفكرين الذين يجيبون القارئ عن كل الأسئلة

حميد زناز
كاتب جزائري

ما هي الأسباب الحقيقية التي جعلت من المؤرخ الإسرائيلي الشاب نجما في عالم الثقافة والفكر منذ حوالي 4 سنوات؟ ولئن كان الأمر عاديا في بقية بلدان العالم المتعود أغلبها على المواضع الفكرية العابرة، فمن الغريب أن يصبح مرجعا وأستاذ فكر في فرنسا، بلد العلوم الإنسانية والفلسفة والنقد المتعدد. فمنذ صدور "العقل - موجز تاريخ الجنس البشري" كتابه الأول مترجما إلى اللغة الفرنسية سنة 2015 مرورا بثاني كتاب له تحت عنوان "هومو ديوس" أو "الإنسان الإله، موجز تاريخ الغد" سنة 2017 ووصولاً إلى آخر كتبه "21 درسا للقرن الحادي والعشرين" الصادر في شهر سبتمبر الماضي والصحف والمجلات والفتوحات التلفزيونية الفرنسية تحنفي بالرجل كأنه المهدي المنتظر الذي طال انتظاره، ولكن من يتمتع في أطروحات كتبه الثلاثة بعيدا عن التقديم اللطيف والسلس الذي يحظى به في وسائل الإعلام، لا يعثر على ابتكار متناسب مع الشهرة التي حققها كشخص والمبيعات التي حققتها كتبه عبر العالم وفي فرنسا تحديدا. بكلمة واحدة هل يستحق ما جاء في ثلاثيته كل هذا الاهتمام والاحتراف إلى حد القول إنه أهم وأكبر مفكر في الوقت الحالي في صحف عالمية عديدة، من بينها أسبوعية لوبوان الفرنسية التي وصفته بـ"المفكر الحالي الأكثر أهمية في العالم".

أما المغازين لبتير الشهرية الفرنسية الشهيرة فقد وضعت في عهده الأخير يناير 2019 على قائمة "35 مفكرا الأكثر تأثيرا في العالم" وهو العنوان الذي يتصدر صفحاتها الأولى.

يوفال نوح هراري.. كاتب يؤرخ للجنس البشري بلغة الأحكام النهائية مستهدفاً القارئ العادي

على قائمة كتبه الخاصة وإشادة الرئيس الأميركي الأسبق باراك أوباما وكذلك الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون الذي دعاه لمأدبة غداء في قصر الإليزيه وإطراء مؤسس شركة مايكروسوفت بيل غيتس على صفحة نيويورك تايمز الأولى والكثير من الفنانين النجوم.

أليس مأساويًا أن يرى في الفيلسوف جان جاك روسو أب إنسانية عصر الأنوار بينما هو أول نقادها الراديكاليين! أليس من الغريب أيضا أن يجعل يوفال نوح هراري من ماركس ونيتشة وفرويد الممثلين المثاليين للإنسانية

لقد وجد جبابرة التكنولوجيا في السيليكون فالي وكل العلماء والمهندسين والمبدعين الرجل الذي يؤكد لهم أنهم إذا ما أرادوا تغيير العالم جذريا فالسلطة لا تزال بين أيديهم وينصحهم ولو بطريقة ملتوية أو لاواعية أن يتجنبوا تحول حلمهم التكنولوجي إلى كابوس مربع سيكتنون فيه هم أول الخاسرين.

وما ساعد أيضا في إنجاح طريقة يوفال نوح هراري هو الأحكام النهائية التي يطلق على الأحداث والظواهر التاريخية والمستقبلية والاستنتاجات والتفسيرات السريعة التي يقدم وهو ما يتناسب مع القارئ العادي عكس الأعمال التاريخية الأكاديمية الصارمة منهجيا وتوثيقيا والتي كثيرا ما تحبط بل تحبط من عزيمة هذا القارئ لصعوبة متابعتها وعدم اقتراحها لحلول مباشرة للمشكلات المطروحة بسبب حذرهما واعترافيهما بعدم الإلمام الشامل بكل حقيقتاتها. ومن هنا يجد القارئ العادي في يوفال نوح هراري ما لم يجده لدى علماء التاريخ: البساطة والسهولة واليقين. وهو ما تجده الجماهير الغفيرة في ملاعب كرة القدم فتملؤها ولا تجده على ركح المسرح المعاصر فتهجره. وأخيرا ألا يحق لنا أن ننظر هذا السؤال الذي قد لا يطرحه غيرنا وقد يراه البعض في غير محله: ألم تتوفر في يوفال نوح هراري ثلاث صفات يستلطفها إنسان الطبقة المتوسطة بعدما وضعه مدير عام فايسبوك مارك زوكربيرغ

بمعنى معالجة وامتلاك تدفقات البيانات الهائلة التي يخلقها أي مرور على الإنترنت تجعل السلطة التي كانت قديما ملك الإله ثم الإنسان تنتقل من الآن فصاعدا إلى الخوارزميات غير الواعية التي تعرف الإنسان أحسن من معرفته لنفسه والتي تبدأ في حرمانه من حريته شيئا فشيئا. فالذكاء الاصطناعي حسبه هو الآن أقوى بكثير من الذكاء الطبيعي أو البيولوجي، فهو يتفوق على أي طبيب متخصص في مرض السرطان في تقديم تشخيص واقتراح علاج، ولكن ما لا ينتبه إليه المؤرخ المغامر في مجال العبر-إنسانية أن هذا لا يعني فقدان الحرية فالتبويب يبقى هو العنصر الأساسي في العملية الطبية لأنه سيقبّل دائما هو الذي يستعمل الذكاء الاصطناعي لصالح المريض، ما دام الأمر لم يصل بعد إلى الذكاء الاصطناعي القوي المجهز بوحي، بمعنى الواعي بذاته. ومن الغريب ألا يذكر يوفال نوح هراري هذه الفرضية الشهيرة المرعبة؛ والتي تثير نقاشا كبيرا بين العبر-إنسانيين والبيو-محافظين.

ألا يعرف أن في السيليكون فالي التي تجلج تصرف الملايير من الدولارات من أجل الوصول إلى هذا الذكاء الاصطناعي القوي الذي سيتفوق نهائيا على الذكاء الطبيعي ويستقل بذاته في حدود 2045 إذا ما صدقنا رأي كروزيل صاحب كتاب "كيف نصنع عقلا؟" والذي كلفته شركة غوجل لتحقيق هذا الحلم؟

لماذا هذا الشغف؟

في كتابه الأخير "21 درسا للقرن الحادي والعشرين"، يثير يوفال نوح هراري الضحك عندما يبحث المجتمعات على أن تحمي نفسها. ولا يحصل سوى الحاصل عندما يقول إن الإنسانية المعاصرة تواجه تحديات عديدة أهمها: الانفجار التقني-علمي، الأزمة البيئية؛ الفرد في النظام الليبرالي والديمقراطي الغربي وأنظمة الذكاء الاصطناعي فما هو سوى استنساخ غير مباشر وتحسين "1984" كتاب جورج أورويل الشهير المنشور سنة 1949.

لم يبل كتابه الأول "العقل - موجز تاريخ الجنس البشري" نجاحا فوريا ولم تهتم به وسائل الإعلام ومن ثم اهتمام القراء سوى بعدما وضعه مدير عام فايسبوك مارك زوكربيرغ

ومن الغريب أنه لا يفرق بين الاشتراكية والشيوعية. وثالثا السياسة التطورية والتي يقول بالحرف الواحد ودون أن يخشى لا من إثارة السخرية ولا الشفقة إنها بلغت الذروة مع "النزعة الإنسانية النازية" أما العصر الثالث فكما هو الحال لدى أوغست كومت فهو عصر العلم الوضعي ولكن متملا اليوم حسب هراري في البيو-تكنولوجيا والذكاء الاصطناعي.

من المدهش حقا أن تكون لدى مؤرخ أصبح نجما عالميا رؤية خاطئة ساذجة لتاريخ أوروبا الحديثة، اليس مأساويًا أن يرى في الفيلسوف جان جاك روسو أب إنسانية عصر الأنوار بينما هو أول نقادها الراديكاليين؛ اليس من الغريب أيضا أن يجعل يوفال نوح هراري من ماركس ونيتشة وفرويد الممثلين المثاليين للإنسانية في حين أن "فلاسفة الارتباب" هؤلاء هم الذين دمروا قواعد الإنسانية قبل علماء الأحياء بتطوير نقد جذري لفكرة حرية الإرادة. فليس العلم الحديث هو الذي أثبت أخيرا أن مفهوم "حرية الإرادة" و"الشخص" مجرد خيال كما يعتقد هراري، فالعناصير بين الحتمية والحرية فكرة قديمة قدم الفلسفة ذاتها ولم ينتظر مارك أوريل، ابن رشد، سبينوزا أو سيغموند فرويد البيولوجيين المعاصرين ليطحروا الإشكالية ويفهموا أنها مستعصية الحل ولا يمكن أن نحل عن طريق العلم لأنها مسألة ميتافيزيقية لا تجريبية. اليس من الغريب أن تخيب هذه البديهية عن ذهن مثقف من هذا الطراز؟

ليس من العيب واستغناء القارئ اعتبار أدولف هتلر وماو تسي تونغ الرجلين الأكثر تمثيلا لإنسانية عصر الأنوار؛ أيتطلب الأمر جهدا ليعرف الكاتب المؤرخ أنهما النفي المطلق لها؛ يتنبأ يوفال نوح هراري بأن الإنسان سيطاح به مثلما حدث للإله في أوروبا بفضل التقدم العلمي وخاصة البيولوجيا والمعلوماتية والخوارزميات الإلكترونية. يدخل الإنسان في عصر "الداتايزم"،

من مختلف التخصصات كعلم الأحياء والأنثروبولوجيا والاقتصاد والتاريخ الخ، فإنه لم يتمكن من الوصول إلى تركيبة مقنعة بل بقي الكتاب في الغالب عبارة عن مجموعة من الحكايات، يفكر الكاتب عبرها من موضوع إلى آخر وكثيرا ما يثبه القارئ مع استطراداته المجانية، ما يفتقر من تخصص صفحات وصفحات لاستحضار ما هو بديهي واضح كالقول إن "إجراء البحوث العلمية يكلف غالبا" وهل يحتاج القارئ لكي يفهم أن الإنسان هو الذي يسيطر في العالم أن يعرف أن وزن مجموع الحيوانات الأليفة هو 700 مليون طن وأن هناك 80 ألف زرافة على وجه الكرة الأرضية و200 ألف من الذئاب الرمادية؛ ولكن ما يدعو للسؤال أكثر هو تساهل الكاتب الكبير مع التوثيق وشح المصادر. يغامر في التأكيد مثلا على بعض الأطروحات ويعملها بطريقة سريعة سطحية ودون ذكر لأي مصدر أو نقاش في الموضوع كقولته إن "التطور جعل من الإنسان العاقل ومعه كل الثدييات الاجتماعية مخلوقا كارها للأجانب"؛ هو في النهاية كتاب حاول أن يعالج قضايا مثيرة للغاية ولكن دون إكترات كبير بمتطلبات البحث العلمي والحقيقة العلمية.

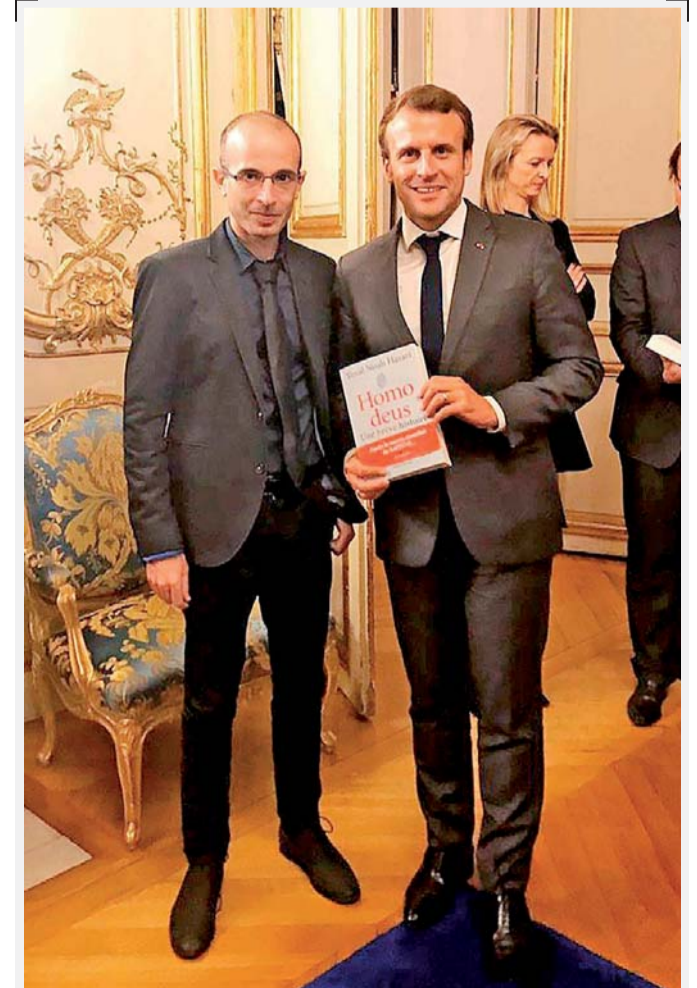
أخطاء فادحة

من "هومو ديوس" (الإنسان الإله)، تنبعث رائحة عالم الاجتماع الفرنسي أوغست كومت، فهو يعيد طبع أطروحة هذا الأخير الشهيرة بكل توابعها ولكن دون أن يذكره. تلك النظرية التي قسمت تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل كبرى: الدينية، الميتافيزيقية والوضعية.

يرى يوفال نوح هراري أن التاريخ الغربي ينقسم إلى العصر اللاهوتي حيث كانت تاتي المبادئ التي تحدد الأخلاق ومعنى الحياة من الإله. والعصر الميتافيزيقي-الإنساني الذي افتتحه جان جاك روسو والذي يترسخ فيه انسحاب الإله والسعي لنقل السلطة إلى قلب الإنسان وإرادته الحرة وحساسيته وإنهاء العميقة. وقد تولدت حسب هراري عن الإنسانية أو المذهب الإنساني أمور ثلاثة: أولا الليبرالية الفردية وثانيا الاشتراكية التي يرى أنها وصلت إلى أوجها مع فلاديمير لينين وماو تسي تونغ؛

التي تبحث في التاريخ قلما يكون لها مثل هذا النجاح الخارق للعادة. وفي الحقيقة لا يعود ذلك النجاح إلى إضافات جديدة وإنما بسبب تناوله لموضوع يجعل القارئ يحلم بالقبض على تاريخ الإنسانية كله في قبضة واحدة، علاوة على اعتماد الأسلوب السردي المتحرر من المرجعية العلمية الصارمة. فهو يتتبع تاريخ الجنس البشري منذ أن كان في مرحلة الصيد والقتل في العصر الحجري القديم ووصولاً إلى الملاعب الرياضية في القرن الحادي والعشرين.

وليس هذا فحسب بل يسمح "المؤرخ" لنفسه بالتحول في فقرات كثيرة إلى قارئ فنان يتنبا بمستقبل الإنسان ويصف ما سيكون عليه بالتفصيل الملء. وإن جمع الكاتب كمية هائلة من المعطيات والأفكار



نوح يوفال بجوار الرئيس الفرنسي ماكرون الذي يحمل كتابا للمؤلف... خلال استقباله في الإليزيه.